﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: 72 - 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ الموقفِ العَجيبِ مِنَ البِشارةِ العَجيبَةِ

لمّا بشَّرتِ الملائكةُ سارَّةَ امرأةَ إبراهيمَ ﷺ بإنجابِ إسحاقَ، ومن ورائِه يعقوبَ ﷺ ناسبَ ذلك بيانُ موقفِها من هذه البِشارةِ الخارقةِ للسُّنَّةِ الإلهيَّةِ؛ فالمناسبةُ بين الآيتين: بيانُ الموقفِ العَجيبِ من البِشارةِ العَجيبةِ، تَسْجيلًا للمنَّةِ الإلهيَّةِ على العائلةِ الإبراهيميَّةِ، وأنَّ ميلادَ العائلَةِ بأكمَلِها كان معجزةً خارقةً للسُّنَّةِ الإلهيَّةِ، فحَريٌّ بالمنتسبين لها الشُّكرُ لا الكُفْرُ، والاتِّباعُ لا الابتِداعُ، والمتابَعةُ لا المعانَدَةُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: الويلُ: حُلولُ الشَّرِّ، والويلةُ: الفَضيحةُ والبَلِيَّةُ، وإذا قال: وا ويلتاه، فإنَّما معناهُ: وا فَضيحَتاه، وتقول: ويَّلْتُ فلانًا؛ إذا أكثرْتَ له من ذِكْرِ الويلِ، وهما يَتَوايَلانِ، وتقول: ويلًا له وائلًا، كقولك: شُغْلٌ شاغلٌ، وشِعْرٌ شاعرٌ من غير اشتِقاقِ فِعلٍ، وتقول: ولْولَتِ المرأةُ؛ إذا قالت: وا ويلَها؛ لأنَّ ذلك يَتَحوَّلُ إلى حكايةِ الصَّوْتِ[1]، وأصلُ (الويل) في اللُّغَةِ: الهَلاكُ والعَذابُ، و"في النُّدْبَةِ: ويْلاهُ، وويَّلَهُ، وويَّلَ لهُ: أكْثَرَ لَهُ من ذِكْرِ الويْلِ"[2].

وعَن أبي طالبٍ النَّحويِّ: أنَّ (ويْلَهُ) كانَ أصْلُها (ويْ) وُصِلَتْ بـ (لَهُ)، ومعنى: ويْ: حُزْنٌ، أُخْرِجَ مُخْرَجَ النُّدْبَةِ[3].

(1) الخليل، العين: (ويل).
(2) الفِيروزابادي، القاموس المحيط: (ويل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ويل).

و"يا ويْلَتا معْناهُ: يا ويْلَتي، فقَلَبَ الياءَ ألفًا، فوكذلكَ يا أبَتا، معناهُ: يا أبَتي"(1).

2) ﴿بَعْلِي﴾: البَعْلُ: الزَّوجُ، يقال: بَعَلَ يَبْعَلُ بَعْلًا وبُعُولةً، فهو بَعْلٌ مستبعلٌ، وامرأةٌ مُسْتَبْعَلٌ؛ إذا كانت تحظَى عند زوجِها، والرَّجلُ يتعرَّسُ لامرأتِهِ يطلبُ الحُظْوةَ عندَها: والمرأةُ تتبعَّلُ لزوجِها؛ إذا كانت مطيعةً لَهُ، والبَعْلُ: أرضٌ مرتفعَةٌ لا يُصيبُها مطرٌ إلّا مرَّةً في السَّنةِ(2)، و"أصلهُ من القيام بالأمرِ، ومن ثمَّ قيلَ للنَّخلةِ الَّتي تَسْتغني بماءِ الماءِ عن سَقي العيونِ: بعلٌ، وقدِ استَبْعَلَ النَّخلُ: صار بَعْلًا، وهو في القرآنِ على وجهَينِ:

أحدُهما: الزَّوجُ، قال: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، والزَّوجةُ: بَعْلةٌ، ولا يُقال: هو بعلُها حتَّى يَدْخُلَ بها، وهو زوجُها على كلِّ حالٍ، وكذلك القولُ فيها، والشّاهدُ قولهُم: باعَلَها؛ أي: جامعَها، وفي الحديثِ: (أيّامُ أكْلٍ وشرْبٍ وبِعالٍ)؛ أي: جِماعٍ. والآخرُ: بمعنى الرَّبِّ، قال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾؛ أي: رَبًّا غيرَ اللّه"(3). "سُمِّي باسمهِ أي: البعل كلُّ مستعلٍ على غيرهِ، فسمَّى العَرَبُ معبودَهم الَّذين يتقرَّبونَ بهِ إلى اللّه بَعْلًا لاعتقادهِم ذلك فيهِ"(4).

3) ﴿شَيْخًا﴾: "يقالُ لمن طعنَ في السِّنِّ: الشَّيْخُ، وقد يُعبَّرُ بهِ فيما بيننا عمَّن يَكثرُ علمُهُ، لما كان من شَأْنِ الشَّيْخِ أن تَكْثُرَ تجارِبُهُ ومعارِفُه، ويقال: شَيْخٌ بَيِّنُ الشَّيْخُوخَةِ، والشَّيَخِ، والتَّشْيِيخِ، قال اللّه تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: 72]، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23]"(5).

4) ﴿عَجِيبٌ﴾: "العَجَبُ والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرضُ للإنسانِ عند الجَهْلِ بسببِ الشَّيء؛ ولهذا قيلَ: لا يصحُّ على اللّه التَّعَجُّبُ؛ إذ هو ﴿عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لا تخفى عليه خافيةٌ، يقال: عَجِبْتُ عَجَبًا، ويقال للشَّيء الذي يُتَعَجَّبُ منه: عَجَبٌ، ولما لم يُعْهَدْ مثلُهُ: عَجِيبٌ"(6)، و"العُجْبُ والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عَلَيْكَ لقِلَّةِ اعْتِيادِهِ"(7)، "والعَجَبُ من اللّه: الرِّضا"(8).

5) ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾: البِرْكَةُ: ما ولِيَ الأرضَ من جلدِ البطنِ وما يليهِ من الصَّدرِ من كلِّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(2) الخليل، العين: (بعل).
(3) العسكريّ، الوجوه والنظائر: (البعل).
(4) الراغب، المفردات: (بعل).
(5) الراغب، المفردات: (شيخ).
(6) الراغب، المفردات: (عجب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).
(8) الفِيروزابادي، القاموس المحيط: (عجب).

دابَّةٍ، اشتُقَّ من مَبْرَكِ البعيرِ؛ لأنَّه يُبرَكُ عليه، والبِرْكةُ والبِرْكُ: شِبهُ حَوْضٍ يُحفَرُ في الأرضِ، ولا يُجعَلُ له أعضادٌ فوقَ صعيدِ الأرضِ، والبَرَكةُ: الزِّيادةُ والنَّماءُ، والتَّبْريكُ: الدُّعاءُ بالبَرَكةِ، والمبارَكةُ: مصدرُ بُورِكَ فيهِ، وتباركَ اللّه: تمجيدٌ وتجليلٌ[1].

فأصلُ البَرْكِ صدْرُ البَعيرِ، وإن استُعْمِلَ في غَيرِهِ، ويقالُ لهُ: بِرْكةٌ، وبَرَكَ البعيرُ: ألقى بَرْكَهُ، واعتُبِرَ منهُ معنى اللُّزوم، فقيل: ابْتَرَكُوا في الحَرْبِ، أي: ثَبُتوا، ولازموا مَوضِعَ الحَرْبِ، وبَراكاءُ الحرْبِ، وبَرُوكاؤُها للمكان الَّذي يلزمُهُ الأبطالُ، وابْتَرَكَتِ الدّابَّةُ: وقفَتْ وقوفًا كالبُروكِ، وسُمِّي مَحْبِسُ الماءِ: بِرْكَةً، والبَرَكَةُ: ثُبوتُ الخَيرِ الإلهيِّ في الشَّيء[2].

فمعنى البركةِ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، وقولهُ ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: 50] تنبيهٌ على ما يَفيضُ من الحياةِ الإلهيَّةِ، ولمّا كان الخيرُ الإلهيُّ يَصْدُرُ من حيثُ لا يُحَسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحْصى، ولا يُحْصَرُ، قيل لكلِّ ما يُشاهَدُ منهُ زيادةٌ غيرُ محسوسةٍ: هو مُبارَكٌ، وفيه بَركةٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عنايةُ اللهِ بأصفيائِهِ تامَّةٌ ورحمتُه بأوليائه كاملةٌ

ذكرتِ الآيةُ موقفَ سارَّةَ امرأةِ إبراهيمَ عليه السلام عند سماعِ بُشرى أن تُرزقَ الولدَ في هذه السِّنِّ، بإبداءِ تعجُّبِها بقولِها: يا ويلتا، وقد أفصحَتِ الآيةُ عن سببِ العَجَبِ، وهو وجودُ مانعَينِ من الحَمْلِ؛ أحدُهما: كونُها عجوزًا، والآخرُ: كونُ زوجِها شيخًا. ومثلُ هذه الحالةِ لا يكونُ معها إنجابٌ.

فكان ردُّ الملائكةِ: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ أمرَهُ لا عجبَ

(1) الخليل، العين: (برك).
(2) الراغب، المفردات: (برك).
(3) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/208.

فيهِ، لنفوذِ مشيئتِهِ التّامَّةِ في كلِّ شيءٍ، فلا يُستغرَبُ على قدرتِهِ شيءٌ، وخصوصًا فيما يُدَبِّرُهُ، ويمضيهِ لأهلِ هذا البيتِ المباركِ، ثم ذكرَتِ الملائكةُ دليلَ عنايةِ اللهِ لهذا البيتِ ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، أي: لا تزالُ رحمتُهُ وإحسانُهُ وبركاتُهُ، وهي: الزِّيادةُ من خيرِهِ وإحسانِهِ، وحلولُ الخيرِ الإلهيِّ على العبدِ ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: حميدُ الصِّفاتِ، مجيدٌ، والمجدُ: هو عظمةُ الصِّفاتِ وسعتُها، فله صفاتُ الكمالِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفَصْلِ:

الاستئنافُ البيانيُّ من شأنِهِ إشراكُ المتلقِّي في الحوارِ القرآنيِّ لفهمِ المعنى

وقعتْ جملةُ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ منَ الكلامِ السّابقِ موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ الكلامُ السّابقُ من شأنِهِ أنْ يُثيرَ في النَّفسِ المخاطَبةِ سؤالًا، مضمونُهُ: وماذا كان ردُّ فعلِها إزاءَ هذه البشارةِ العظيمةِ والعَجيبةِ؟

فتأتي جملةُ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ جوابًا لهذا السُّؤالِ المقدَّرِ في الذِّهنِ، وهكذا هي بلاغةُ الذِّكرِ الحكيمِ: تَمنحُ الذِّهْنَ المتلقِّي فرصةَ المشاركةِ الفاعلةِ في التَّواصلِ مع النَّصِّ، بحيث يكون السِّياقُ كالحوارِ الَّذي يَنهضُ فيهِ الذِّكرُ الحكيمُ بدورِ طَرفٍ، وينهض الذِّهنُ المتلقِّي فيهِ بدورِ الطَّرفِ الآخرِ، فتَظَلُّ لُغةُ القرآنِ الكريمِ حيَّةً متفاعلةً متناغيةً مع المتلقِّي والمستمعِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

غرضُ النِّداءِ:

بيانُ شدَّةِ الأخبارِ غيرِ المتوقَّعةِ على النُّفوسِ، يُذهبُ الإنكارَ عليها من النُّفوسِ

لم تقصدِ امرأةُ الخليلِ عليه السلام بقولِها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ "الدُّعاءَ على نفسِها بالويلِ؛ ولكنَّها كلمةٌ تَخِفُّ على أفواهِ النِّساءِ؛ إذا طرأ عليهنَّ ما يَعجَبْن منهُ، وهي قد عجِبَتْ من ولادَتِها، وهي عجوزٌ وكونُ بعْلِها شيخًا، لخروجِهِ عن العادَةِ"[2].

(1) السعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 386.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

و"معنى ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ في هذا الموضع العبارةُ عمّا دَهَم النَّفسَ من العَجَب في وِلادة عجوز، وأصلُ هذا الدُّعاءِ بالويل ونحوِهِ في التَّفجُّع لِشدَّةٍ أو مكروهٍ يَهُمُّ النَّفسَ، ثمَّ استُعملَ بعدُ في عجبٍ يَدْهَمُ النَّفسَ، وقال قومٌ: إنَّما قالت: يا ويْلَتا؛ لما مرَّ بفكرِها من ألم الولادةِ وشدَّتِها، ثمَّ رَجَعَتْ بفكرِها إلى التَّعجُّبِ، ونَطَقَتْ بقولِها: أألِدُ وأنا عَجُوزٌ؟ الآية"[1].

فهذه الجملةُ - بما فيها من نداءٍ ومنادى - من صيغِ التَّعجُّبِ الَّتي تفرضُ نفسَها على المتعجِّب عند تلقِّيه الأمرَ العجيبَ، وكأنَّ المتعجِّبَ ينادي الويلَ نفسَهُ أن أدركني، فقد لاقَيْتُ ما لا قِبَلَ لي بِهِ، ولا قوَّةَ لي عليه.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ:

قولهُ تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ "اسْتِعارَةٌ تَبَعِيَّةٌ بِتَنْزِيلِ الويْلَةِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَعْقِلُ حَتَّى تُنادَى، كَأَنَّها تَقُولُ: يا ويْلَتِي احْضُرْ هُنا، فَهَذا مَوْضِعُكَ"[2]، وتكمُنُ بلاغةُ الاستعارةِ في نداءِ الويلِ، وهو لا يكون إلّا في شرٍّ أو أمرٍ عجيبٍ، فلمّا نادتِ الويلَ بتنزيلِهِ منزلةَ مَن يَعْقِلُ؛ عُلِمَ أنَّ الأمرَ عظيمُ العجبِ، وهو ما يعكسُ الحالةَ النَّفسيَّة الَّتي مرَّت بها امرأةُ الخليلِ عليه السلام من استحضارِ الولادةِ، وهي أمرٌ خارقٌ في مثل حالِها، وكيف سيكون مصيرُ مَنْ يُولَدُ، وكيف سينمو، ويترعرعُ، وما إلى ذلك من خواطرِ النِّساءِ، وهذا سرُّ نداءِ الويلِ المضافِ إلى ياءِ المتكلِّم الَّتي انقلبت ألفًا.

بيانُ الحالةِ النَّفسيَّةِ الَّتي مرَّت بها امرأةُ الخليلِ عليه السلام

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ مادَّةً وصيغةً:

لفظُ الويلِ "أصلهُ للدُّعاء بالويلِ ونحوِهِ في جزعِ التَّفَجُّعِ لشدَّةِ مكروهٍ يَدْهَمُ النَّفسَ، ثمَّ استُعملَ في التَّعجُّبِ"[3]، وأصلُ نداءِ

تعجُّبُ المؤمنين من أمرِ الله عند غيرِهم جَزَعٌ وفَزَعٌ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/190.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/120.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/115.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ هو يا ويلَتِي، "فَأُبْدِلَ من الياء والكسرةِ الألفُ؛ لأنَّ الفتحَ والألفَ أخفُّ من الياءِ والكسرةِ"[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الويلِ دونَ العجبِ، فلم تَقُلْ: يا عجبي، ذلك أنَّ الويلَ يتردَّدُ بين الجزَعِ والتَّعجُّبِ، فأتى بالمفردةِ الَّتي تدلُّ على تعجُّبِها صراحةً، وأنَّه لو كان ذلك الخبرُ لغيرِها؛ لوقعَ الجزعُ، فسِرُّ اختيارِ هذه المفردةِ بيانُ أنَّ من شأنِ مثل هذه الأخبارِ أن تجزَعَ لها النِّساءُ، لكنَّ امرأةَ الخليلِ عليه السلام كان منها العجَبُ، وهذا دليلُ بركةِ هذا البيتِ وإيمانِ أهلِه.

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿ءَأَلِدُ﴾ عن السّابقةِ:

توكيدُ المعاني بين الجملِ وتقويةُ الدّلالات

جملةُ ﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهاميَّةٌ تعجُّبيَّةٌ، وقعَتْ بعد جملةِ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾، وهي إنشائيَّةٌ ندائيَّةٌ، فتحقَّقَ بينهما كمالُ الاتِّصال لاتِّحادِهما في الإنشائيَّةِ، وكأنَّهما قد تَوالَدَتا، وتناسلَتا من نَفْسٍ واحدة، فلا مكانَ بينهما لواصلٍ، ولا حاجةَ بهما إلى رابطٍ أجنبيٍّ دخيلٍ، إذ قامتِ الجملةُ الثّانيةُ مقامَ التَّأكيدِ لمعنى التَّعجُّبِ الواردِ في الأولى.

غرضُ الاستفهام:

الولادةُ في حالِ امرأةِ الخليلِ أمرٌ خارقٌ للعادةِ، فهو مدعاةٌ للتَّعجُّبِ

الاستفهامُ في جملةِ ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ يفوحُ بالتَّعجُّبِ المعلَّلِ بجملةِ الحال ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ والمدعوم تعليلُهُ بجملة الحالِ المعطوفةِ عليها ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، و"لم يكُنْ ذلك منها تكذيبًا، ولكن استغرابًا له"[2].

سرُّ دخولِ الاستفهام على الفعلِ:

تمحُّضُ العَجَبِ من الولادةِ مع اقترانِها بأحوالٍ تستَحيلُ معها الولادةُ

دخلتْ همزةُ الاستِفهام على الفعل (ألِدُ) في جملةِ ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾، ولم يأتِ النَّظْمُ بذكرِ الفاعلِ مبتدأً بتقدير: أأنا ألِدُ؟ فكانت الجملةُ فعليَّةً لا اسميَّةً، وهو ما يقتضيه الظّاهرُ بدليل ما بعدَهُ ﴿وَأَنَا۠

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/63.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

عَجُوزٌ﴾؛ أي: أأنا ألدُ في هذه الحالِ؟ لكنَّ النَّظمَ آثرَ ما جاءَ عليهِ؛ ليتمَكَّنَ التَّعجُّبُ من فعلِ الولادةِ؛ أي: كيفَ تكونُ ولادةٌ في هذه السِّنِّ، ثمَّ إنَّها لم تلدْ، وهي شابَّة قابلَةٌ للولادَةِ؛ لأنَّها عاقِرٌ، وهذا مانعٌ، ثم إنَّها تقدَّمَتْ في السِّنِّ حتَّى بَلَغَت سِنَّ اليَأْسِ، وهذا بذاتهِ عائقٌ آخرُ، ثم إنَّ زوجَها شيخٌ، وهذا عائقٌ ثالثٌ، فهي قد تعجَّبت من أن تلدَ في هذهِ الحالِ! فما تمالَكت نفسَها إزاء هذا الوضع حتى قاربتْ على إنكارِ الولادَةِ، لكنَّها تداركتْ ببيان أنَّ غرضَها إنكارُ الولادةِ منها هي، وأنَّ حالها وحالَ زوجِها لا يلائمُهما، ولا تسمحُ لمثلها بولادةٍ، وهذا "نَظَرًا إلَى أحْوالِ العادَةِ، لا لِأجْلِ أنَّها اسْتَنْكَرَت قُدْرَةَ اللّه تعالى عَلَى ذَلِكَ"[1].

براعةُ اجتماعِ الحالِ:

بيوتُ الأنبياءِ مَنْبَعُ الآدابِ ومَحاسِنِ الأخلاقِ

اجتمعَ حالانِ مانعانِ من الإنجابِ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، وهما: سنُّ المرأةِ المانعُ من الإنجابِ، وسنُّ الزَّوجِ كذلك، فلمّا اجتمعَ هذانِ الحالانِ؛ كان ذلك بيانًا لأمرين، هما: سببُ التَّعجُّبِ، وعلَّةُ السُّؤالِ. ولُطْفُ ذكرِ هذينِ الحالين يكمُنُ في أدبِ هذه المرأةِ العظيمةِ في خِصالِها وأخلاقِها وخِطابِها، فهي لم تَكتَفِ بقولِها: ﴿ءَأَلِدُ﴾؛ لأنَّ الاكتفاءَ بالسُّؤالِ قد يُفهَمُ منهُ الإنكارُ، بل رفْضُ الخَبرِ جملةً، فذكرَتْ ما يجولُ في خاطرِها من بيانِ سَببِ سؤالِها، وانتظرتِ الجوابَ بعدَ ذلك.

نكتةُ ذكرِ اسم الإشارةِ:

تصويرُ المجلسِ وبيانُ رضا الزَّوجِ عن حِوارِ زوجِهِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ عدم اكتفاءِ امرأةِ الخليلِ بأن تقولَ: (وبعلي شيخٌ)؛ لتكونَ على وِفاقِ الجملةِ السّابقة ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ فذُكر اسمُ الإشارةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، و"جُمْلَةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.

﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي﴾ مُرَكَّبَةٌ منْ مُبْتَدَأٍ وخَبَرٍ؛ لِأَنَّ المَعْنَى: هَذا المُشارُ إلَيْهِ هُو بَعْلِي؛ أيْ: كَيْفَ يَكُونُ لَهُ ولَدٌ، وهُو كَما تَرَى؟"[1]، ونكتةُ ذلك تصويرُ مشهدِ الحوارِ، فالخليلُ ﷺ حاضرٌ في المجلسِ، وهو يسمعُ ويرى، فلم يَمْنَعْ زوجَهُ من توجيه السُّؤالِ والتَّعجُّبِ ممّا بُشِّرا به، بل تركها على سجيَّتِها تتكلَّمُ، وتسألُ، وهذا من بديع التَّعاملِ الرّاقي في بيوتِ الأنبياءِ، فإنَّ الإشارةَ إليه بهذا للقريبِ دليلٌ على قُربِه مكانًا منها، وعلى سماعِه لكلامها، ولو أتَتْ على ذكرِه بالإخبارِ، فقالت: (وبعلي شيخٌ)؛ لما تُصوِّرَ وجودُهُ ﷺ في المجلسِ.

نكتةُ التَّقابُلِ بين لفظَي عجوزٍ وشيخٍ:

الكشفُ عن التَّقارُبِ في العمرِ بين الزَّوجينِ المباركَينِ

قابلتِ الآيةُ بين ذكْرِ وصْفِ امرأةِ الخليلِ بالعَجوزِ، ووصفِ الخليلِ بالشَّيخ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾، فالعجوزُ هي المرأةُ الطّاعنةُ في السِّنِّ، وهي من أوصافِ النِّساء، فلا يُقال: رجلٌ عجوزٌ بل شيخٌ، ولذلك ضُعِّف أن يُقال: عجوزةٌ بتاءِ التَّأنيثِ؛ لأنَّ هذهِ اللَّفظةَ خاصَّةٌ بالنِّساء، كما يُقال: امرأةٌ حاملٌ، لا حاملةٌ، كما أنَّه اختُصَّ الرِّجالُ بوصفِ شيخٍ، وإن وُصِفَتِ المرأةُ بذلك، فلا يُرادُ منها معنى الطَّعنِ في السِّنِّ، بل معنًى آخر، ولهذا التَّقابلِ نكتةٌ: وهي بيانُ التَّقاربِ في السِّنِّ بينهما، فهي كبيرةٌ طاعنةٌ والخليلُ كذلك، وهي إلماحةٌ تاريخيَّةٌ لبيانِ تقارُبِهما في العمرِ، وفيها ردٌّ على من يظُنُّ أنَّ وجودَ الفارقِ في العمرِ هو الأفضلُ في الزَّواجِ، فهذا الخليل الذي لم يُنجِب من امرأتِه، قد كَبِر معها، وطعنا في السِّنِّ، وهما يُمثِّلان حالةً أنموذجيَّةً من الزَّواجِ النّاجحِ، بل إنَّ الآيةَ لتدلُّ بطَرفٍ خفيٍّ بأنَّ التَّقارُبَ في السِّنِّ من بواعثِ الاتِّفاقِ والتَّقارُبِ في الحياةِ الزَّوجيَّة، لاسيَّما؛ إذا كان هناك قصورٌ في عدم إنجابِ الأبناءِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/121.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿بَعْلِي﴾ على (زوجي):

المرأةُ الصّالحةُ تنتقي من أوصافِ زوجِها ما يَنْشُر فضائلَهُ

البَعْلُ: الزَّوجُ[1]، والسَّيِّدُ، "سُمِّي الزَّوجُ بعلًا لِتطاولِهِ على الزَّوجةِ، كتطاول السَّيِّدِ على المَسُوْدِ"[2]، وقد عبَّر عن الزَّوجِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ بالبعلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه زوجٌ قائمٌ على شؤونِ الحياةِ الزَّوجيَّة، وأنَّه قيِّمٌ عليها لا يُحوِجُها إلى أحدٍ في أيِّ شأنٍ من شؤون الحياةِ، فـ "تسميَةُ الزَّوجِ بعلًا فيها دقَّةٌ شديدةٌ؛ لأنَّ البَعْلَ هو الَّذي يقومُ بأمرِ المبعولِ، ولا يُحْوِجُهُ لأحدٍ، كذلك الزَّوجُ يقوم بأمر زوجته، فيما لا يستطيعُ أبوها ولا أخوها أن يقوما بهِ، وهو الإحساسُ بالأنوثَةِ والإخصابِ، وهو أهمُّ ما تطلبهُ المرأةُ... فالبعلُ هو الزَّوجُ الَّذي يقومُ على أمرِ زوجتِهِ، فلا يحوجُها إلى غيره في أيِّ شيءٍ منَ الأشياءِ"[3].

لَطيفَةٌ في عَمَلِ اسم الإشارةِ:

التَّنبيهُ على المعروف من دواعي التَّعجُّبِ المعروف

الحالُ في قوله تعالى: ﴿شَيْخًا﴾ "نَصْبُها منْ غامضِ النَّحْوِ، وذَلِكَ إذا قُلْتَ: هَذا زَيْدٌ قائمًا، فإن كُنْتَ تَقْصِدُ أن تُخْبِرَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ زَيْدًا أنَّهُ زَيْدٌ؛ لَمْ يَجُزْ أن تَقُولَ: هذا زيدٌ قائمًا؛ لأنَّهُ يَكُونُ زَيْدًا ما دامَ قائمًا، فإذا زالَ عَنِ القِيام؛ فَلَيْسَ بِزَيْدٍ.

وإنما تَقُولُ لِلَّذي يَعْرِفُ زَيْدًا: هَذا زَيْدٌ قائمًا، فَيَعْمَلُ في الحالِ التَّنْبِيهُ، والمَعْنَى: انْتَبِهْ لِزَيْدٍ في حالِ قِيامِهِ، أو: أُشيرُ إلى زَيْدٍ في حالِ قِيامِهِ؛ لأنَّ هَذا إشارةٌ إلى مَنْ حَضَرَ، والنَّصْبُ الوجْهُ"[4].

وهي حالٌ من مُشارٍ إليهِ لا يُستغنى عنها؛ لأنَّها مقصودُ الإخبارِ، فهي حالٌ لازمةٌ[5]، و"المَقْصُودُ تَعْرِيفُ هَذِهِ الحالَةِ المَخْصُوصَةِ،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6562.
(4) الزجّاج، معاني القرآن: 3/63 - 64.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.

وهِيَ الشَّيْخُوخَةُ"[1]، فكأنَّ السَّيِّدةَ سارَّةَ ﵂ تقول للملائكةِ الكرام: انتبِهوا لحالِ زوجي فهذهِ حالُهُ، تريدُ أن تُقوِّيَ بذلك تعجُّبَها لحصول الولادةِ مع افتقادِ أسبابِها من جميعِ الجوانبِ.

بلاغةُ الكِنايةِ في لفظِ: ﴿شَيْخًا﴾:

المرأةُ الصّالحةُ تُغَلِّفُ مَعانيها الجارِحَةَ، ولا تجرحُ زوجَها بِعَجْزِهِ

إنَّ إمكانَ الولادَةِ مع الطَّعنِ في السِّنِّ بالنِّسبةِ للزَّوجِ هو الآخرُ من دواعي عَجَبِ السَّيِّدةِ سارَّةَ امرأةِ إبراهيمَ ﵇ وكان بإمكانِها التَّعبيرُ عن تلك السِّنِّ بوصفٍ آخرَ؛ لكنَّها اصطفتْ هذا الوصفَ ﴿شَيْخًا﴾؛ لتغليف أحدِ أهمِّ موانعِ الولادةِ في كنايةٍ مهذَّبةٍ راقيةٍ عن عدَمِ إطاقَةِ زوجِها الإنجابَ، وقد قيل: بأنَّها قد "عرَّضتْ بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ عن ترْكِ غشيانِه لها"[2].

فالسيِّدةُ سارَّةُ أوصلت رسالتَها بأدبٍ جمٍّ، وكرَّمتْ زوجَها، باصطفائِها وصْفَ ﴿شَيْخًا﴾، على حين هضمتْ نفسَها هي؛ إذ تواضعتْ بوصفِ نفسِها بقولِها: ﴿عَجُوزٌ﴾ الَّذي تتحاشاهُ النِّساء عمومًا، ومن إشاراتِ وصف ﴿شَيْخًا﴾: الوقارُ، والهَيْبَةُ، والعلمُ، والحلمُ، والسِّيادةُ، والحكمةُ، وغيرها من شمائلَ تُمدَحُ.

بلاغةُ التَّقديمِ بين الجملِ:

في مواضعِ الاشتراكِ في العجزِ يُبتدَأُ بذكرِ عجزِ الذّاتِ قبلَ ذِكْرِ عَجْزِ الزَّوجِ

لسائلٍ أن يسألَ عن نكتةِ تقديم جملةِ ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ على جملة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ دونَ العكسِ، والجوابُ أنَّ هذا ما يقتضيه الظّاهرُ والحالُ، أمّا الظّاهرُ؛ فإنَّ المرأةَ تعجَّبت من أن تلدَ، وهذا تعجُّبٌ صادرٌ عنها بسببِ عجزِها وعجْزِ زوجِها عن الإنجابِ، فكان المناسبُ أن تتكلَّمَ عن نفسِها ابتداءً، وأمّا الحالُ؛ فقد "قَدَّمَتِ السيِّدةُ سارةُ بيانَ حالِها ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ على بيانِ حالِه ﵇ ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾؛ لأنَّ مُبايَنةَ حالِها لِما ذُكِرَ من الولادةِ أكثرُ؛ إذ رُبَّما يُولَدُ للشُّيُوخِ من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

الشَّوابِّ، أمّا العَجائِزُ؛ فداؤُهنَّ عَقامٌ، ولأنَّ البِشارةَ مُتوجِّهةٌ إليها صَريحًا، ولأنَّ العكْسَ في البيانِ ربَّما يُوهِمُ من أوَّلِ الأمرِ نِسبةَ المانِعِ من الولادةِ إلى جانبِ إبراهيمَ ﷺ وفيه ما لا يَخفَى من المحذورِ، واقتِصارُها الاستبعادَ على ولادتِها من غيرِ تَعرُّضٍ لحالِ النّافلةِ[1]؛ لأنَّها المستبعَدُ، وأمّا وِلادةُ ولَدِها؛ فلا يتَعلَّقُ بها استِبعادٌ"[2].

وفيه فائدةٌ أنَّ المرأةَ إذا كانت تشترِكُ مع زوجِها في قصورٍ ما؛ فتبدأ بنفسِها قبل ذِكْرِ قصورِ زوجِها، فهذا ما يقتضيه الأدبُ، وتفرضُهُ محاسنُ الأخلاقِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملِ الاسميَّةِ:

جاءتِ الجملتانِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ بصيغةِ الاسميَّةِ؛ تقويةً لاستحالةِ الولادَةِ بحسبِ العادةِ لدى البَشَرِ، فأفادتِ استقرارَ وضعِهما على العجزِ عن الإنجابِ بسببِ الطَّعنِ في السِّنِّ وافتقادِ أسبابِ الإنجابِ، فإنَّ الاسميَّةَ تُوحي بثباتِ مضمونِ الخبرِ، وذلك أيضًا فاعلٌ في تأكيدِ موانعِ الإنجابِ، ومع كونِ هذه الاسميَّةِ حالًا؛ فإنَّ هذا يزيدُ من ثباتِها، فهي حالٌ ثابتةٌ مستقرَّةٌ، ولمّا كانت الجملتانِ اسميَّتين؛ فقد دلَّتا على تقاربِ الحالين ثباتًا واستقرارًا للزَّوجين، وهذا دليلٌ على ثباتِهما على معاني الودِّ والائتلافِ مع عدمِ إنجابِهما، ومعرفتِهما لذلك.

تكافؤُ الزَّوجينِ في الإمكاناتِ يديمُ الودَّ

علَّةُ الفصلِ بين الجملِ:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ وهو جملةٌ خبريَّةٌ عن الجملةِ السّابقةِ الإنشائيَّةِ، إمّا بحمْلِها على الاستئنافِ النَّحوي، فلمّا اختلفت طبيعةُ الجملتين؛ وجبَ الفصلُ لكمالِ الانقطاعِ بين الأسلوبين بهذا الاعتبارِ.

قد يجتمعُ توجيهُ كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ في الموضعِ الواحدِ

(1) المقصود بالنافلة هنا يعقوب ﷺ لأنَّه المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72].

(2) الدّرر السَّنية، موسوعة التفسير على الرابط: https://dorar.net/tafseer/11/14.

وإمّا في جعلها تأكيدًا للجملة السّابقة، فهي "مُؤَكِّدَةٌ لِصيغَةِ التَّعَجُّبِ في الجملة الأولى ﴿ءَأَلِدُ﴾، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عنها لِكَمالِ الاتِّصالِ، وكَأَنَّها كانَتْ مُتَرَدِّدَةً في أَنَّهُمْ مَلائِكَةٌ، فَلَمْ تَطْمَئِنَّ لِتَحْقِيقِ بُشْراهُمْ"[1].

فهي محمولةٌ على كمالِ الاتِّصالِ؛ إذا نظرنا في المعاني المترابطةِ، حيث كانتِ الثّانيةُ تأكيدًا لما جاءَ في الأولى، وإمّا أن تُحْمَلَ على كمالِ الانقطاعِ؛ لاختلافِ الجملتين خبرًا وإنشاءً، والأولى أن تكون الثّانيةُ تأكيدًا للأولى، بل بيانًا للأولى، فإنَّ غرضَ الاستفهام في: ﴿ءَأَلِدُ﴾ محمولٌ على التَّعجُّبِ بدليل هذه الجملةِ، وهذا التَّوجيهُ أقربُ لقانونِ المعنى والدَّلالةِ منه إلى مسلكِ اللَّفظِ والصِّناعةِ.

غرَضُ التَّوكيدِ:

طرْقُ بابِ العقلِ لـقـبـولِ خـبرِ البُشرى

أكَّدَتِ السَّيِّدةُ سارَّةُ زوجُ إبراهيمَ ﷺ عَجَبَ خبرِ ولادتها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وهذا الخبرُ لا يحتاجُ إلى توكيد؛ لأنَّه غيرُ موجَّهٍ إلى شاكٍّ ولا منكِرٍ، فالمخاطَبُ ملائكةُ الرَّحمنِ ﷻ الذين نزلوا بهذه البشارةِ أصلًا، فلا داعيَ للتَّأكيدِ.

غيرَ أنَّ الذُّهولَ الَّذي لفَّ السَّيِّدةَ اقتضاها أنْ تُؤكِّدَ الخبرَ؛ وفاءً بِحِسِّها هي، ومراعاةً لانفعالها هي، وكأنَّها تخاطِبُ نفسَها، وتقولُ: أنتِ عجوزٌ، وزوجُكِ شيخٌ، فأنَّى لكِ مثلُ هذا؟ وكيف تَلْقَيْنَ به النّاسَ؟ فغرضُ التَّوكيدِ هو فتحُ بابِ العقلِ لقبولِ خبرِ البُشْرى، فهو أقربُ أن يكونَ إلى الكلام النَّفسيِّ منه إلى خطابِ الآخر.

بلاغةُ استعمالِ اسم الإشارةِ للقريبِ المذكَّرِ:

المُشارُ إليه تبشيرٌ قـريـبُ الـسَّـماعِ مؤكَّدٌ محقَّقٌ

استُعملَ اسمُ الإشارةِ في: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ لبيانِ سرعةِ الحوارِ الحاصل بين تبشيرِ الملائكةِ ﷺ وتعجُّبِها ﷺ فهي تشيرُ إلى مسموعٍ قريبٍ، وتشيرُ إلى أمْرٍ مؤكَّدٍ مُحقَّقٍ؛ أي: إنَّ هذا التَّبشيرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/121.

الَّذي بشَّرتموني به شيءٌ عجيبٌ، فدلَّ اسمُ الإشارةِ على قُربِ السَّماعِ، وتواصلِ الحوارِ، وأنَّ المشارَ إليهِ تبشيرٌ؛ أي: "إنَّ هذا الَّذي بشَّرتموني بهِ من حصولِ الولدِ لي في تلك السِّنِّ المتقدِّمةِ لَشَيْءٌ عَجِيبٌ في مجرى العادةِ عند النِّساءِ"[1].

نكتةُ الإطنابِ بذكرِ ﴿لَشَيْءٌ﴾:

لم يكتفِ النَّظمُ الكريمُ بالإخبارِ عن المتعجَّبِ منهُ بأن يُقالَ: (إنَّ هذا لعجيبٌ)، بل آثرَ الإطنابَ، فأخبرَ عنهُ بلفظِ (شيء)؛ ليقعَ العجَبُ صِفةً لذاتٍ؛ تجسيدًا لهذا المعنى، وتثبيتًا لمعناهُ، وتأكيدًا لحصولِه في النَّفسِ راسخًا متمكِّنًا، فهو شيءٌ، لا مجرَّدُ كلامٍ يُقال، أو ألفاظٍ تُسرَدُ.

مفاجأةُ التَّبشيرِ بالأمرِ المحبوبِ المستحيلِ وقوعُهُ عظيمُ الأثرِ ثقيلُ الحِمْلِ

وقد ترجمَ ذلك يقينُها بحصولِ التَّبشيرِ العجيبِ، فهي في أكملِ سعادةٍ، وذلك أنَّ "الإنسانَ إذا كان عظيمَ الرَّغبةِ في شيءٍ، وفاتَهُ الوقتُ الَّذي يغلُب على ظنِّهِ حصولُ ذلك المرادِ فيهِ، فإذا بُشِّر بعد ذلك بحصولِهِ ازدادَ فرحُهُ وسرُورُهُ، ويصير ذلك الفرحُ القويُّ كالمُدهش له، وربَّما يجعلهُ هذا الفرحُ يُعيدُ السُّؤالَ لِيَسْمَعَ تلك البشارةَ مرَّةً أخرى؛ طلبًا للالتذاذِ بسماعِها"[2].

سرُّ إيثارِ صفةِ ﴿عَجِيبٌ﴾ على مرادفاتِها:

العجيبُ هو ما لا يُعرفُ مثلُه، ولا يُتَوقَّعُ حصولُهُ، وصيغتهُ فعيلٌ بمعنى مُفعِلٍ؛ أي: مُعجِبٌ، صيغةُ مبالغةٍ من العَجَبِ الثَّائرِ في نفسِ المتكلِّم، ولمَّا كان هذا الشَّيءُ مجهولًا وغريبًا وغيرَ معهودٍ؛ وصفتْهُ السَّيِّدةُ بالعَجيبِ؛ ولأنَّها صارتْ بين أمرين: الأوَّل: ثِقَتُها في صِدْقِ خبرِ البِشارةِ بالإنجابِ، وإيمانُها بحتميَّةِ تحقُّقِهِ، والثَّاني: أثرُ هذا الخبرِ عليها.

عُمومُ اللَّفظِ في اشتمالِهِ على صفاتٍ أخرى ولترجمتِهِ ما يجولُ في النَّفسِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/241.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/56.

وسرُّ إيثارِ هذا الوصفِ دونَ غيرِهِ كالغريبِ، والبعيدِ؛ لأنَّه أعمُّ من بقيَّةِ الصِّفات، فليس البعيدُ بالضَّرورةِ أن يكونَ مُتعجَّبًا منهُ، وكذلك الغريبُ، فجيءَ بعجيبٍ لاشتمالِهِ على هذه المعاني الَّتي ثَبتَتْ باللَّفظِ وبالسِّياقِ، ولأنَّ هذا اللَّفظَ هو الذي يُعبِّر عمّا يجولُ في نفسِ امرأةِ الخليلِ عليه السلام.

عِلَّةُ الفصلِ بين الجملِ:

الاستئنافُ البيانيُّ ارتباطٌ دلاليٌّ ورابطٌ ذهنيٌّ

وقعتْ جملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ﴾ ممّا قبلَها موقعَ جوابٍ تُثيرهُ الجملةُ السّابقةُ في ذِهن المتلقِّي، فحْواه: ماذا كان جوابُ الملائكةِ الكرام على تعجُّبِها؟ فجاءَ الرَّدُّ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ﴾، على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، فالنَّظمُ يُعطي حيويَّةً، ويستثيرُ ذهنَ المتلقِّي، ويُشركهُ في عمليَّة التَّواصل، ويمنحُ المتلقِّي فرصةَ الحوارِ الافتراضيِّ حين يجيبُ عن سؤالِهِ الَّذي نبتَ في ذهنِهِ.

غرضُ الاستفهام:

ألطافُ اللهِ الَّتي تنالُ المقرَّبين لا تنالُ غيرَهم ممَّن لم يقتربْ من منازلِ رحمتِهِ

يَحْملُ الاستفهامُ في: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ معنى التَّعجُّبِ من تعجُّبِ امرأة الخليلِ عليه السلام وفيه رائحةُ الإنكارِ، "وإنَّما أنكرت عليها الملائكةُ تعجُّبَها؛ لأنَّها كانت في بيت الآياتِ ومهبطِ المعجزات والأمورِ الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقَّرَ، ولا يزدهيها[1] ما يزدهي سائرَ النِّساءِ النّاشئاتِ في غير بيوتِ النُّبوَّةِ، وأنْ تُسَبِّحَ اللهَ ﷻ وتُمجِّدَهُ مكان التَّعجُّبِ، وإلى ذلك أشارتِ الملائكةُ – صلواتُ اللهِ عليهم – في قولهم: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ إلى أنَّ هذه وأمثالَها ممّا يُكرمُكم بهِ ربُّ العزَّة، ويخُصُّكم بالإنعام بهِ – يا أهلَ بيتِ النُّبوَّةِ – فليست بمكانِ عَجَبٍ"[2].

(1) قوله: (ولا يزدهيها) في الصحاح: "زهاه وازدهاه: استخفَّه وتهاون به". يُنظر: حاشية الكشاف: 2/411.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.

وفي الاستفهام غرضٌ فرعيٌّ آخرُ، وهو "تطمينٌ لها، وتوكيدٌ لهذه البشرى الَّتي بُشِّرَتْ بها، وأنَّها رحمةٌ من الله ﷻ وبركةٌ على أهلِ هذا البيتِ الَّذين اختصَّهم الله برحمتهِ وبركاته، وإذا كانوا كذلك؛ فإنَّ ما يتلقَّونه من الله ﷻ من فضلٍ لا يكون موضعَ عَجَبٍ، وإنْ جاء على غيرِ ما يَعهَدُ النّاسُ؛ فإنَّ لله ﷻ في أوليائهِ ألطافًا، لا ينالها غيرُهم ممَّن لم ينزلوا منازلَ رحمتهِ ورضوانهِ"[1].

نكتةُ إيثارِ المضارعِ على الماضي:

تصويرُ آثارِ الانفعالِ المستمرَّةِ في الحوارِ مع ملائكةِ الرَّحمنِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ صيغةِ المضارعِ ﴿أَتَعۡجَبِينَ﴾ على أن يُقالَ: (أعجِبْتِ؟) وقد تحقَّقَ العجبُ ووقع، وذلك لتصوير مشهدِ التَّعجُّبِ الواقعِ من امرأةِ الخليلِ ﷺ فإنَّ تعجُّبَها وقعَ، وتحقَّق منها، لكنَّ آثارَه لم تنتهِ بعدُ، فهي متعجِّبةٌ ممّا بُشِّرتْ به، وبقيت آثارُ الانفعالِ حاضرةً في موقفِها وحوارِها، وفيه دلالةٌ على سُرعةِ جوابِ الملائكة عليهم الصَّلاةُ والسَّلام على تعجُّبِها، فهي ما زالت في حالةِ التَّعجُّب والذُّهولِ إلى أنْ أتاها هذا الإنكارُ من ملائكةِ التَّبشير الحميدِ، فقطعوا بسؤالِهم تعجُّبَها، وأمروها بالطُّمأنينةِ والسَّكينةِ واستقبالِ أمرِ الله بالرِّضا والسُّرورِ.

معنى حرف ﴿مِنۡ﴾:

يدورُ معنى (من) بين السَّببيَّة والابتداءِ

يحتملُ حرفُ (من) في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أن يكون سببيًّا؛ أي: أتعجبينَ بسببِ أمرِ الله وقضائهِ، وبهِ يظهرُ معنى الإنكارِ؛ أي: لا تعجبي فإنَّ الأمرَ صادرٌ عن الله تعالى وما يصدرُ عن الله؛ فلا يُتعجَّبُ منهُ.

ويحتمل أن يكونَ للابتداءِ المجازيِّ؛ أي: أتعجبينَ من مجيءِ أمرِ الله تعالى فإنَّ أمرَ الله إذا جاءَ؛ تحقَّقَ وثبتَ.

(1) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1172.

دلالةُ الإضافةِ:

أمرُ الله نازلٌ منهُ سبحانه وسيكونُ له شأنٌ في قادم الأيّام

الأمرُ في قولهِ تعالى: ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ واحدُ الأمورِ لا الأوامرِ، فهي بمعنى القضاءِ بوقوعِ الشَّيء، وعُبِّر بلفظِ الأمر للإيماءِ إلى أنَّ الله قد أمرَ سبحانه به، وأصبح أمرًا متحقِّقًا ثابتًا، والإضافةُ إلى لفظِ الجلالةِ بمعنى (من)؛ أي: أمرٌ منَ الله تعالى ففيه إشارةٌ إلى أنَّه نازلٌ منهُ سبحانه وأنَّ لهذا الأمرِ شأنًا في قادمِ الأيّام.

نكتةُ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ دونَ الرَّبِّ:

المقامُ مقامُ إيمانٍ وإذعانٍ وهو المناسبُ لِلَفْظِ الألوهيَّةِ

آثرتِ الآيةُ ذِكْرَ لفظِ الجلالةِ دونَ لَفْظِ الرَّبِّ في: ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، فلم يَقُلْ: (أتعجبين من أمرِ ربِّك) مع أنَّ أمرَ الخَلْقِ مرتبطٌ بالرُّبوبيَّةِ، فيُسألُ عن نكتةِ الاختيار؟ والَّذي يظهرُ أنَّ ذِكْرَ لفظِ الجلالةِ لما فيهِ من توريثِ المهابةِ المُزيلةِ للتَّعَجُّبِ، فإنَّ المقامَ هو مقامُ تسليمٍ وإذعانٍ لأمرِ الله تعالى وهو ما يتناسَبُ مع الألوهيَّةِ، فكان ذكرُ لفظِ الجلالةِ هو الأوفقُ بالسِّياقِ.

براعةُ موقعِ الجملِ من السّابقِ:

وقعتِ الجملةُ من السّابقةِ موقعَ الخبرِ المتضمِّنِ دعاءً بغرض التَّعليلِ

لقولهِ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ من السّابقِ احتمالات:

الأوَّل: الاستئنافُ المفيدُ للتَّعليلِ؛ إذ "علَّلَ به إنكارَ التَّعجُّبِ، كأنَّهُ قيلَ: إيّاكِ والتَّعجُّبَ، فإنَّ أمثالَ هذهِ الرَّحمةِ والبركةِ متكاثرةٌ من الله ﷻ عليكم"[1]، ففي هذهِ الجملةِ "ما يُزيلُ ذلك التّعجُّب، وتقديرُهُ: إنّ رحمة الله عليكُم مُتكاثرة وبركاتِه لديكُم مُتوالية مُتعاقبة، وهي النُّبُوّةُ والمُعجزاتُ القاهرةُ والتّوفيقُ للخيراتِ العظيمةِ، فإذا رأيتِ أنّ الله خرق العاداتِ في تخصيصِكُم بهذهِ الكراماتِ العاليةِ الرّفيعة وفي إظهارِ خوارقِ العاداتِ وإحْداثِ البَيِّناتِ والمُعْجزاتِ، فَكَيْفَ يَليقُ بهِ التَّعَجُّبُ"[2].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.

الثّاني: الدُّعاءُ، "وكونهُ دعاءً إنَّما يقتضي أنَّه أمْرٌ يُتَرَجَّى، ولم يَتحصَّلْ بعدُ"[1].

الثّالثُ: الإخبارُ، "وكونه إخبارًا أشرفَ؛ لأنَّ ذلك يقتضي حصولَ الرَّحمةِ والبركةِ لهم"[2].

ويحتملُ المقامُ أن تكونَ الجملةُ للتَّعليلِ، والدُّعاءِ، والإخبارِ، أمّا الإخبارُ؛ فهو أصلُ الأمرِ، وأمّا الدُّعاءُ؛ فهو مضمَّنٌ في الخَبَرِ، وأمّا التَّعليلُ؛ فهو بيانُ عِلَّةِ حصولِ هذا الأمرِ لهذه العائلةِ العدليَّةِ العليَّةِ.

بلاغةُ الحذفِ:

رحمةُ الله أصلُ كلِّ خيرٍ ومَنْبَعُ كلِّ بركةٍ

أصلُ قولِه تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾: (هذه رحمةُ الله)، أو: (رحمةُ الله تتنزَّلُ عليكم أهلَ البَيتِ)، فحُذِفَ المسندُ إليه في التَّقديرِ الأوَّلِ، وحُذِفَ المسندُ في التَّقديرِ الثّاني؛ وذلك يُوفِّرُ عنايةَ التالي والمستمعِ للذِّكرِ الحكيمِ، ويلفتُهما إلى عظمةِ رحمةِ الله ﷻ التي هي غايةُ غاياتِ المخلوقِ بعد رضوانِ الله ﷻ عنه وعليه.

فائدةُ تقديمِ الرَّحمةِ على البَركةِ:

قُدِّمَتِ الرَّحمةُ لبيانِ أنَّها أعمُّ من البَركةِ

الرَّحمةُ أشملُ من البركةِ، فكلُّ بركةٍ رحمةٌ، وليست كلُّ رحمةٍ بركةً، فالله ﷻ يرحمُ الكافرَ في الدُّنيا، ولكن لا يباركُ لهُ، أمّا رحمتُهُ بالمؤمنِ؛ ففيها ومنها تنبثقُ البركةُ، فقُدِّمتِ الرَّحمةُ في قولِه تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لبيانِ شمولِها هذا البيتَ المباركَ، والرَّحمةُ سابقةٌ، فهي أصلُ كلِّ خيرٍ، ثمَّ عُطِفَ عليها الأخصُّ لبيانِ أنَّها رحمةٌ متكاثرةٌ في الزَّمنِ القادمِ، وأنَّها ليست مجرَّدَ رحمةٍ نزلتْ، بل هي باقيةٌ في هذا البيتِ التَّليدِ بأشكالٍ وأنواعٍ متعدِّدةٍ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

عندما تأخذُ الجملةُ حظَّها من المعنى فلها حكمُ الانفرادِ عن السّابق

تقدَّم قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، فكانَ مقتضى الظّاهرِ أن يقولَ: (رحمتُهُ وبركاتُه) في قولِهِ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ إضمارًا لتقدُّم ذكرِ لفظِ الجلالةِ؛ لكنَّ النَّظمَ تركَ الظّاهرَ، وأخذَ بمقتضى الحالِ، ونكتةُ ذلك: أنَّ النَّظْمَ ذكَرَ كلَّ جملةٍ منفردةً عن الأخرى، فالأُولى جاءتْ للإنكارِ على التَّعجُّبِ من أمرِ الله، والأخرى جاءت للتَّعليلِ والدُّعاءِ والإخبارِ - كما سبق - فهو شروعٌ في معنًى جديد مستأنفٍ من جهةٍ، ومرتبطٍ بالأولى من جهةٍ ثانية، فأخذَتْ كلُّ جملةٍ حظَّها من المعاني، بانفرادٍ عن الأخرى، مع شديدِ ارتباطِها بها؛ ولذلك حسُنَ إظهارُ لفظِ الجلالةِ، وأمرٌ آخرُ: وهو أنَّ الجملةَ جرَت مجرى الأمثالِ السّائرةِ، فكان إظهارُ لفظِ الجلالةِ هو الأنسبُ.

دلالةُ إفرادِ الرَّحمةِ وجمْعِ البَرَكَةِ:

رحمةٌ واسعةٌ وشاملةٌ، والبركاتُ متنوِّعةٌ ومتعدِّدة

أُفرِدَتِ الرَّحمةُ، وجُمعت البركةُ في قولِهِ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ لبيانِ أنَّ رحمةَ اللهِ عامَّةٌ وشاملةٌ لكلِّ شيءٍ، فيدخُل فيها كلُّ رحمةٍ، ويتَّسقُ مع سبْقِها واستيعابها واتِّساعها لكلِّ رحمةٍ، فهي رحمةٌ واسعةٌ سابقةٌ، وأمّا ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ ﷺ فإنَّها تتنوَّعُ، وتَحُلُّ في كلِّ شيءٍ، فالصِّحَّةُ نوعٌ من البرَكةِ، والعُمُرُ نوعٌ من البركةِ، والسَّمعُ نوعٌ من البركةِ، والبصرُ نوعٌ من البركةِ، والبدَنُ نوعٌ من البركةِ، وفي العقلِ، وفي الرُّوحِ، وفي الأهلِ، وفي المالِ... إلى آخرِ أنواعِ البركاتِ الَّتي تحُلُّ في نعمِ اللهِ ﷻ وهي لا تُحصى كما وردَ بذلك قولُ اللهِ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: 34].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

رحمةُ الله تنزلُ على الصّالحين نورًا وهدًى إلى يوم الدِّين

فِعْلُ الرَّحمةِ يتعدَّى بنفسِهِ، فنقولُ: رحِمَ اللهُ فلانًا، ويتعدَّى بالباءِ، فنقولُ: رحمةُ اللهِ ﷻ أحاطتْ بنا، ويتعدَّى بعلى فنقولُ: رحمةُ اللهِ ﷻ نزلَتْ عليه، وقد آثرَ النَّظمُ الحكيمُ في قولِهِ تعالى:

﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ التَّعديةَ بحرف الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ الرَّحمةَ وأسبابَها إنَّما تتنزَّلُ من أعلى، ففي ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ معنى التَّنزيل من عُلُوٍّ، والمعنى: رحمةُ الله ﷻ تتنزَّلُ عليكم أهلَ بيت النُّبوَّة، وهو ما يتَّسقُ مع المذكورِ سابقًا في توجيهِ نكتةِ إضافةِ لفظِ الأمرِ إلى لفظِ الجلالةِ.

توجيهُ الإعرابِ بين النِّداءِ والاختصاصِ:

التَّنويهُ بشأنِ أهلِ بيتِ النُّبُوَّةِ، والتَّلطُّفُ بخطابِهم

نُصِب ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ "على النِّداء، أو على الاختصاص؛ لأنَّ أهْلَ البَيْتِ مَدْحٌ لهم؛ إذ المرادُ: أهلُ بيتِ خليلِ الرَّحمن"(1)، وعلى النِّداءِ فأصلُ قولِه تعالى: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾: (رحمةُ الله وبركاتُه عليكم يا أهلَ البيتِ)، فحُذِفَت أداةُ النِّداء لِقُربِ آلِ البيتِ من الملائكةِ في لحظاتِ هذا الحوارِ، و﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ وهم هنا في الدُّنيا يتلقَّوْنَ من السَّماءِ، ويستقبلونَ رسُلَ الله ﷺ الكرامَ، فكان حذْفُ أداةِ النِّداء مناسبًا ووافيًا بحقِّ المكانِ والمكانةِ بهذين القُرْبَين الكريمين.

ولغرضِ "التَّنْويهِ بِهِمْ"(2)، والإشارةِ إلى أنَّ أهلَ بيتِ النُّبوَّة من ساحاتِ الهدى والرَّحمة والبركات والطُّهر والكرامات بمكانٍ، فقد بيَّنتِ الجملةُ بهذا الحذفِ اليسيرِ "خصوصيَّتهم بإسقاطِ أداة النِّداء مدْحَةً لهم، فقال: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ أي: قد تَمَرَّنْتُم على مشاهدةِ العَجائبِ لكثرةِ ما تَرَوْنَ من آثارِه بمثل ذلك"(3)، "وأنْتُمْ أهْلٌ لِتِلْكَ الرَّحْمَةِ والبَرَكَةِ، فَلا عَجَبَ في وُقُوعِها عِنْدَكُمْ"(4).

دلالةُ تركيبِ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾:

تشريفُ من التَصقَ بهِ هذا الإطلاقُ إلى يومِ الدِّين

أُطْلِقَ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ على إبراهيمَ عليه السلام وزوجِه، وهذا الإطلاقُ أصبحَ علمًا على هذا البيتِ الكريم، ولم يرِد في الذِّكر الحكيم إلّا في أهلِ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 9/332.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.

بيتِ الخليلِ إبراهيمَ ﷺ وأهلِ بيت رسولِنا محمَّدٍ ﷺ وذلك يدلُّ على خصوصيَّةِ أهلِ هذينِ البيتينِ في عطاءاتِ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ، والبركات الصمدانيَّةِ، وهي دلالةُ تشريفٍ وتكريمٍ، حيث إذا ذُكِر أهلُ البيتِ؛ لم ينصرفِ الذِّهنُ إلّا لهذين البيتينِ، فـ «اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وأَزْواجِهِ وذُرِّيَّتِهِ، كَما صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إبْراهِيمَ، وبارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وأَزْواجِهِ وذُرِّيَّتِهِ، كَما بارَكْتَ عَلَى آلِ إبْراهِيمَ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[1].

معنى التَّعريفِ:

تعريفُ ﴿ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ بـ (الـ)، وهو "تَعْرِيفُ حُضُورٍ، وهُو البَيْتُ الحاضِرُ بَينهم الَّذِي جرى فِيهِ هَذا التَّحاوُرُ؛ أيْ: بَيْتُ إبْراهِيمَ ﷺ والمَعْنَى: أهْلُ هَذا البَيْتِ"[2]، أو على جعْلِ (الـ) عوضًا عن مضافٍ إليه محذوفٍ، على تقديرِ: أهل بيتِ إبراهيمَ ﷺ.

بلاغةُ الالتفاتِ من خطابِ الواحدِ إلى خطابِ الجمعِ:

تعميمُ الرَّحمةِ والبركةِ بجميعِ أهلِ البيتِ

التفتَ خطابُ الملائكةِ ﷺ "من صيغةِ الواحدةِ: ﴿أَتَعۡجَبِينَ﴾ إلى خطابِ الجماعَةِ في جمْعِ المذكَّر: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ لتَعميم حُكمِهِ لإبراهيمَ ﷺ أيضًا؛ ليَكونَ جَوابُهم لها جَوابًا له أيضا إنْ خَطَرَ بِبالِهِ مثلُ ما خطَر ببالِها"[3]، كما أنَّ فيه بشارةً بامتدادِ البرَكةِ في ذرِّيَّتِهما من أهلِ هذا البيت.

بلاغةُ التَّذييلِ:

المطلوبُ من العبادِ تحميدُ اللهِ وتمجيدُهُ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ تذييلٌ بديعٌ حيثُ أفادَ أمرين:

الأوَّلُ: "بيانُ أنَّ مقتضى حالها أن تَحمَدَ مستوجبَ الحمدِ المحسنَ إليها بما أحسنَ، وتمجِّدُهُ إذ شرَّفها بما شرَّفَ"[4].

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (80)، كِتابُ الدَّعَواتِ، بابُ هَلْ يُصَلَّى عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ: 8/77.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.

(3) الدّرر السَّنية، موسوعة التفسير على الرابط: https://dorar.net/tafseer/11/14.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/116.

الآخر: الإشارةُ "إلى أنَّهُ ﷻ يَحْمَدُ لعبادِهِ الصّالحين ما يتقرَّبون به إليه من طاعاتٍ وقرباتٍ، فيجزيهم على ذلك الجزاءَ الأوفى، ويرفعُهم إلى منازلِ العزَّةِ والمجادة والشَّرف، وإبراهيمُ عليه السلام ممن أعطى اللّه كيانَهُ كلَّهُ، فأسلمَ له وجودَهُ ظاهرًا وباطنًا، فاستحقَّ أن يُحْمَدَ ويُمَجَّدَ، وهذا ما يشيرُ إليه قولهُ ﷻ بعد ذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾"[1].

بلاغةُ اجتماعِ وصْفَي ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾:

كِنايةٌ عن رضا اللّه تعالى عن أهلِ بيتِ الخليلِ عليهم السلام

اجتمعَ وصفُ الحميدِ والمجيدِ في فاصلةِ هذه الآيةِ، ولهذا الاجتماعِ بلاغةٌ، فالحميدُ "هُو المَحْمُودُ، وهُو الَّذي تُحْمَدُ أفْعالُهُ، والمَجِيدُ: الماجِدُ، وهُو ذُو الشَّرَفِ والكَرَمِ، ومِنْ مَحامِدِ الأفْعالِ إيصالُ العَبْدِ المُطِيعِ إلَى مُرادِهِ ومَطْلُوبِهِ، ومِنْ أنْواعِ الفَضْلِ والكَرَمِ ألّا يُمْنَعَ الطّالِبُ عَنْ مَطْلُوبِهِ، فَإذا كانَ مِنَ المَعْلُومِ أنَّهُ ﷻ قادِرٌ عَلَى الكُلِّ، وأنَّهُ ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فَكَيْفَ يَبْقَى هَذا التَّعَجُّبُ في نَفْسِ الأمْرِ؟ فَثَبَتَ أنَّ المَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ هذه الكلماتِ إزالةُ التَّعَجُّبِ"[2].

وأفعالُ الحميدِ "تقتضي أن يُحمَدَ، و﴿مَّجِيدٌ﴾ أي: متَّصفٌ بأوصافِ العُلُوِّ، ومَجَدَ الشَّيءُ؛ إذا حَسُنتْ أوصافُه"[3]، ومن كان بهذه الصِّفاتِ "ليس بعيدًا منه أن يُعطيَ الولدَ للآباءِ بعد الكِبَرِ"[4]، فهو ﷻ "كريمٌ كثيرُ الإحسانِ إليهم"[5]، "وكلمةُ ﴿حَمِيدٌ﴾ هنا بمعنى حامدٍ ومحمودٍ؛ لأنَّهُ ﷻ حامدٌ لمن يطيعهُ طاعةً نابعةً من الإيمان، واللّه ﷻ "محمودٌ ممَّن أنعمَ عليهم نعمَهُ السّابغةَ، واللّه ﷻ هو المجيدُ الَّذي يعطي قبل أن يُسألَ"[6].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/172.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/376.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/192.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/242.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/411.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6567.

"وفي اخْتِيارِ وصْفِ الحَميدِ منْ بَيْنِ الأسْماءِ الحُسْنَى كِنايَةٌ عَنْ رِضا اللّه تعالى عَلَى إبْراهِيمَ عليه السلام وأهلِهِ"[1].

إبقاءُ وصفَي (حَميدٌ مَجيدٌ) في دعاءِ التَّشهُّدِ دليلُ عظمةِ الدُّعاء بهما

قد "وصَفَ اللّه ﷻ كِتابَهُ بالمجيدِ، كَما وصَفَ نَفْسَهُ بِهِ؛ لِسَعَةِ هِدايَةِ كِتابِهِ، وسَعَةِ كَرَمِهِ وفَضْلِهِ عَلَى عِبادِهِ، ومنْ هَذِهِ الآيَةِ أخَذَ النَّبِيُّ ﷺ دُعاءَ الصَّلاةِ الَّذي أمَرَ بِهِ أُمَّتَهُ عَقِبَ التَّشَهُّدِ الأخِيرِ منَ الصَّلاةِ"[2]، "حيثُ يقولُ الدّاعي: كما صلَّيتَ، وباركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مَجيدٌ"[3].

ويأتي ذلك منهُ ﷺ وفاءً لأبيهِ إبراهيمَ الخليلِ وأهلِ بيتِهِ الكرام، كما أنَّ فيه دليلًا على عظَمةِ الدُّعاء بهذين الوصفين ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾؛ وإلّا فما كان لهُما أن يكونا كالخَتْم على تمام الصَّلاةِ، وهي بصددِ ارتفاعٍ إلى اللّه ﷻ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَعْلُ والزَّوجُ:

"الرَّجلُ لا يكونُ بعلًا للمرأةِ حتَّى يَدْخُلَ بها، وذلك أنَّ البِعالَ: النِّكاحُ والملاعَبةُ، ومنهُ قولُهُ ﷺ: «أيّامُ أكْلٍ وشُرْبٍ وبِعالٍ»، وأصلُ الكلمةِ: القيامُ بالأمر، ومنه يقال للنَّخْلِ إذا شرِب بِعُرُوقِه، ولم يَحْتَجْ إلى سَقْيٍ: بَعْلٌ، كأنَّهُ يقومُ بِمصالحِ نفسِهِ"[4].

الشَّيخُ والكَهْلُ:

"الشَّيْخُ مَنِ اسْتَبانَتْ فيه السِّنُّ، أو من خَمْسِينَ أو إحْدَى وخَمْسِينَ إلى آخِرِ عُمُرِهِ أو إلى الثَّمانينَ"[5]، و"شأنُ الشَّيخِ أن تكثُرَ تجاربُهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/108.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/147.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.
(5) الفيومي، القاموس المحيط: (شيخ).

ومعارفُه"[1]، "والكَهْلُ: من وخَطَهُ الشَّيْبُ، قال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: 46]، واكْتَهَلَ النَّباتُ؛ إذا شارفَ اليبوسةَ مشارفةَ الكَهْلِ الشَّيبَ"[2]، و"الكَهْلُ منَ الرِّجالِ: مَنْ زادَ عَلَى ثَلاثِينَ سَنَةً إلى الأربعين، وقِيلَ: هُو منْ ثَلاثٍ وثَلاثِينَ إلى تَمام الخَمْسِينَ"[3].

البرَكةُ والزِّيادةُ:

"البرَكةُ: هي الزِّيادةُ والنَّماءُ من حيثُ لا يوجدُ بالحِسِّ ظاهرًا، فإذا عُهِدَ من الشَّيءِ هذا المعنى خافيًا عن الحِسِّ؛ قيل: هذهِ بَركةٌ، وقيل: اشتقاقُها من البُروكِ، وهو اللُّزومُ والثُّبوت؛ لثبوتها في الشَّيء، ويُوصَفُ بها كلُّ شيءٍ لزمَهُ، وثبتَ فيه خيرٌ إلهيٌّ.

وليس لضدِّها اسمٌ معروفٌ؛ فلذلكَ يُقالُ فيه: قليلُ البرَكةِ، ولا يُسنَدُ فِعلُ البرَكةِ إلّا إلى اللّه ﷻ فلا يقالُ: بارَكَ زيدٌ في الشَّيءِ، وإنَّما يُقال: باركَ اللّه فيهِ، فإذًا كلُّ بَركةٍ زيادةٌ، وليس كلُّ زيادةٍ بَركةً"[4].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/360.
(2) الراغب، المفردات: (كهل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كهل).
(4) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 96.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»